# ٣ـ رسائل التعليقات للرصافي

## وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية

للأستاذ دريني خشبة

ذهب الأستاذ الرصافي في تعليقاته إلى أن « وحدة الوجود » هي شيء لم تعرفه الدنيا قبل الإسلام ، وأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو أول من عرفها ، وأنه لم يذكر منها شيئاً لأصحابه إلا ما لمح به منها لأبي بكر ، وإن يكن قد أشار إليها في القرآن ، ثم ظلت مجهولة حتى القرن الثاني من الهجرة حينما جهر بها المتصوفة الذين يعدهم الأستاذ وخدم فلاسفة المسلمين (ص ١٣ — ١٤)

وقبل أن نخوض في هذا الحديث الذي لم نكن نؤثر أن نعرض له لو لم يدع الأستاذ الرصافي جميع المسلمين إلى الأخذ به ، عائباً عليهم أخذهم بظاهر ما أتاهم الرسول به ، وعدم فهم ما قال « محمد » في القرآن على أصله ، مستشهداً على غفلة المسلمين بكلام لمستشرق إيطالي جاهل يقول : « إن المسلمين تمسكوا بمتن الإسلام لا بروحه ، فأغمضوا عيونهم على شكل الأحكام التي أثبتها محمد ، وبقوا جامدين عليها ، فلذا بقيت على ما هي عليه من ركود وجمود ، أي بقيت ديناً ابتدائياً لا يتمشى مع كل زمان ؛ وليس ذلك من عمل محمد ، بل هو من عمل المسلمين . . . » ص ٢٠٣ ، داعياً لهذا المستشرق بألا يفض الله فاه لقوله هذا الكلام ... فض الله فاه وأفواه الزنادقة أجمعين !

لولا هذا اللغو الذي يدعونا الرصافي إليه ، ولولا أنه طبعه في كتاب وزعه وأهدى منه ، لما آثرنا أن نخوض في إفك نهانا رسول الله عن الخوض فيه حتى لا نهلك . . . ولكن ما الحيلة ونحن نرمى بالجمود والدعوة إلى الحجر على حرية الفكر إذا دعونا إلى محاربة هذا البهتان الذي شاع في الدولة العباسية ؛ فكان في شيوعه القضاء على أمجاد المسلمين الفكرية والسياسية

قبل أن نخوض في هذا الحديث إذن نحب أن نعود بالأستاذ الرصافي ، هداه الله ، إلى ما قبل الإسلام بقرون عشرة أو نحوها . . . لنستعرض ما كان يراه فلاسفة اليونان في هذا الوجود ، وذلك منذ أن بدأت الإنسانية تتفلسف تلك الفلسفة التي نمقتها ، وإن تكن هي التي هدتنا إلى الله خالق كل شيء ... المحيط بكل شيء ، الهادي إلى سواء السبيل . وسنجتهد ألا نلتوي بالقراء في مهامه تلك الفلسفة اليونانية التي تصور لنا أخصب نضال فكري في التاريخ للاهتداء إلى الحق . ومع ذلك فلم يفز الحق منها بشيء : وسنرى أن اليونان فكروا في وحدة الوجود ، وأن مشكلات هذه الوحدة كانت تتعقد في رؤوس فلاسفتهم تعقداً يقف عند أصول مضحكة ، لأنها مزيج من خيبة الرجاء ، ومن الخبط في ظلمات لم يحن الحين للتفكير الإنساني أن يستجلي أسرارها . ومع أنه من الجرأة أن نلخص هذه الأفكار المتضاربة في عمود أو عمودين من أعمدة هذه المجلة ، إلا أننا مضطرون إلى ذلك ، لنضحك آخر الأمر على وحدة الوجود التي تملأ أدمغة متصوفينا ، كما ضحكنا أياماً ونحن نكب على الفلسفة اليونانية نتأملها ونتدارسها عسى أن تهدينا إلى شيء نفرح به

١ — فكر طاليس في نشأة الموجودات ، حية وجامدة ، فزعم أنها نشأت من الرطوبة[1] ولكن كيف نشأت ؟ هذا ما لم يستطع طاليس أن يفسره

٢ — ثم زعم تلميذه أنجزماندر أنها خلقت من مادة غير معينة ولا محدودة[2] ، وذلك بالانفصال عنها ، ثم قضى الله عليها بالفناء في تلك المادة ثانية للأنانية التي أبدتها في أن تكون لها حياتها المستقلة !

٣ — ثم زعم أنجزمينس أنها البخار Vapour—anp ، وأن الأشياء قد خلقت منه ، إما بالتكاثف ( السحاب والماء والتراب ) أو بالتخلخل ( النار والشموس ) !

٤ — ثم جاء فيثاغورس وأتباعه الذين اقتدوا بأورفيوس الموسيقي في تقشفه وزهده واتخذوا البياض شعاراً لهم ، وسموا إلى تطهير النفس من أدران المادة بالتفكير الفلسفي ، زعموا أن الأشياء قد خلقت من العَدَد ( ! ! ) وملأوا فلسفتهم

(١) Moisture (٢) Infinite Undefined

بالألغاز التي لا يفهمها من ليس ... طائفتهم

٥ — ثم كان أجزنوفانس ... شد الذى ثار بأساطير هومر الإلهية ودعا الناس إلى عبادة ا ... الواحد الذى ليس كمثله شيء والذى تنزه عن الأعضاء ، فهو ... ع كله سمع ، وبصير كله بصر وعاقل كله عقل ... موجود فى ... كل الوجود Omnipresent إلا أنه كان يؤمن بأن الله ( ... ) فى العالم ، وأنه ليس شيئاً غيره ، وهو لذلك أول قائل بوحـ ... ة الوجود

٦ — ثم جاء بارمنيدس فأنكر كل ما تدركه الحواس ولم يؤمن إلا بما يدركه العقل ، وذهب إلى أن كل شيء غير الوجود — الكينونة ! — خداع ووهم ، لأن المحسات كلها فانية والوجود وحده هو الأزلى الخالد ، إلا أنه عاد فاعترف بكمّية الوجود وأنه يشغل مكاناً وفى ذلك اعتراف ضمنى بمادية الوجود ... !

٧ — ويؤيد الفيلسوف زينو ما ذهب إليه بارمنيدس ، وينكر الحسيات والتعدد والحركة ( وسبحان واهب العقول ! ) فكأنما العالم عند هؤلاء عالمان ، عالم الوجود المعنوى ، وعالم الوهم ( اللاوجود ) الحسى — أما ما هى العلاقة بين العالمين فلم يحاولوا تبيانها

٨ — ويجيء هرقليطس فينقض آراء من تقدموه ، ويعترف بالتقاء عالمى الوجود واللاوجود ، بل بالتقاء المتناقضات كلها ، محتجاً بأن التناقض هو فى نظرنا فحسب ، ثم يرتأى أن العالم كله مخلوق من النار ، وأنه دائم التحول لا يثبت على حال واحدة لحظة واحدة ، وأن العقل الإنسانى والحياة الإنسانية هما قبضة من تلك النار تشتعل بالحواس والتنفس — ودوام التحول هو دوام الاشتعال nûp ، إلى أعلى way up وإلى أسفل way down الخ

٩ — ثم يأتى إمبيدوكلس فيرد المخلوقات إلى أربعة جذور ( عناصر ! ) : التراب والماء والهواء والنار ، ويزعم أنها لا تتغير فى طبيعتها وأن الذى يقوم بالاتصال بينها هو الحب ( الجاذبية ) وأن الذى يقوم بالانفصال بينها هو البغض ( التنافر ) . ويتناوب الحب والبغض تجميع العناصر وتفريقها إلى الأبد ، فرة ينتصر الحب فيصير الكون كله مزيجاً « وحدة » وأخرى ينتصر البغض فتتفرق العناصر

١٠ — وتأتى نوبة الذريين ، فيقول ديمقريطس[1] إن العالم يتركب من ذرات seeds يدفع بعضها بعضاً ، خبط عشواء ( ! ! ) فيناقضه أناجزا جوراس الذى يقول بتعدد العناصر وبوجود قوة عاقلة مدبرة حكيمة هى « العقل » أو ما يسميه هو Noös تتولى تحريك تلك العناصر وتوجيهها وجهة غائية صالحة تضمن جمال الكون ونظامه ، إلا أنه يعتقد قدم العقل والعناصر على السواء وأن أحدهما لم يخلق الآخر ، وإن حرك العقل العناصر وألف معها « وحدة الوجود ! » — ومع ذلك فقد ظل اثنينياً آخر الأمر

١١ — ويأتى « دور » السوفسطائيين الذين يعنون بالحياة العملية ، ويهملون الفلسفة النظرية ، وزهدوا فى المناقشة حول الآلهة ... ويقول أحدهم « بروتاجوراس » : « إننى لا أستطيع أن أقرر إن كانوا موجودين أو غير موجودين ، كما لا أستطيع أن أستبين صورهم ، وإن حياتنا القصيرة لا تساعدنا على معرفتهم معرفة صحيحة لشدة الغموض الذى يكتنفهم ! » وبهذا أثاروا الشكوك وزعزعوا العقائد ، وإن خدموا الثقافة خدمة جليلة .

١٢ — ويصلح سقراط ما أفسده السفسطائيون ، وينشيء نظرية المعرفة القائمة على الإدراكات العقلية والمعانى الكلية ، والتى جعلها أساساً للفضيلة كما جعل الجهل أساساً لكل الشرور ، وتجاهل عواطف المرء وشهواته ؛ فكانت نقطة الضعف فى فلسفته التى ردت إلى الناس إيمانهم بالحقائق الخارجية على أساس ثابت غير الأساس القديم الساذج الذى هدمه السوفسطائيون . وقد انقسم أتباع سقراط بعد موته إلى طوائف ثلاث ، فانصرف الكلبيون عن زخرفة الحياة وآثروا التقشف ، وزهدوا فى العلوم والفنون . بل دعوا إلى الجهل مكتفين بالفضيلة التى تكفل لهم السعادة ! أما القورينيون فقد خالفوا الكلبيين فى طريق الوصول إلى الفضيلة ولم يروا السعادة فى الزهد والتقشف ، بل رأوها فى اللذة والاستمتاع بكل ما تصبو إليه النفس فى حدود الاعتدال حتى لا تكون النتيجة شراً ، وكلما كانت اللذة حسية كانت فى نظرهم أضمن جلباً للسعادة من اللذة الذهنية ، ولهم فى شرح اللذات كلام طويل عجيب — أما الميجاريون فقد

(١) أسقطنا من السلسلة أستاذه الفيلسوف ليكيوس وإن يكن هو صاحب النظرية

نشدوا السعادة — أعنى الفضيلة — فى حياة التأمل والمعرفة — فى التعمق الفلسفى ، واستكناه حقيقة هذا الوجود

١٣ — ثم كانت نظرية المثل التى قال بها أفلاطون ، وأن لكل شىء مثالاً من الكمال مجرداً من الحس يسمو إليه ، فهو يجعل المُثل ذوات مستقلة عن الأشياء لها وجود قائم بنفسه ، وجعل مثال الخير أساس جميع المثل : ومع أن أفلاطون يعترف بوجود إله خلق العالم ويمسكه ويدبر أموره فهو يتردد بين الوحدانية والتعدد ، ولا يحدد العلاقة بين الله ومثال الخير ؛ والعالم عند أفلاطون عالمان . عالم الحقيقة وهو عالم المثل ، وعالم الظواهر وهو هذا العالم المحس ، وهو صورة لعالم المثل . ثم هو يؤمن بالتناسخ ، فتعود النفس السعيدة إلى عالم المثل وتبقى فيه حقبة ثم تعود فتحل فى إنسان آخر ؛ فإن كانت شقية عذبت قليلاً ثم حلت فى جسم مخلوق وضيع ، والسعادة عند أفلاطون هى الإحاطة بعالم المثل ، وفهم العلاقة بين المثل والمحسوسات والتمتع بالمتع البريئة ، ثم تحصيل أكبر قدر من الثقافات ، وترانا من أفلاطون أمام ثالوث عجيب : المادة ، والمثل ، والله ، وكلها قديم . وهذا هو الضلال

١٤ — وقد نقد أرسطو نظرية المثل وهدمها من أساسها لما خلق أفلاطون من هذا العالم الخيالى الذى يوازى هذا العالم المدرك ، ولأنه لم يستطع تعليل كليهما ولا تعليل الحركة فى العالم الثانى . وقد رأى أرسطو أن سبب هذه البلبلة فى أفكار الفلاسفة هو عدم وجود قواعد ثابتة تضبط أفكارهم وكلامهم فاخترع المنطق لهذا الغرض . وقد عرض لمسألة الله وخلق العالم فنفى الزمنية بينهما ، بل جعلهما مقترنين ، اقتران المقدمة بالنتيجة ، فلم يكن الله أولاً ثم كان العالم . وبهذا كان العالم قديماً عند أرسطو ... والله عنده هو الكمال المطلق والعلة الصورية الغائية التى تحرك هذا العالم بجذبه إليه . وهذا هو الترقى، اقتراب العالم من الكمال المطلق ... وما دام العالم قديماً فهو لا أول له ... وكذلك لا نهاية له . . . واضطرب أرسطو فى تصور ذات الله ، هل له وجود مستقل مشخص ، أم ليس له هذا الوجود المشخص المستقل ؟ فقول أرسطو مرة إن الله يحيا فى سعادة أبدية ، وأنه هو الوجود المطلق يدل على التشخيص والوجود المستقل ؛ ولكن تعبيره عنه مرة أخرى بأنه هو الصورة المجردة يعنى أنه من مادة لا وجود لها ... وعلى هذا فلا وجود له إلا هذا الوجود المعنوى . وليس بعد هذا اضطراب فى فلسفة المعلم الأول الإلهية . أما فلسفته الطبيعية فسليمة لا غبار عليها ، إذ تتبع هذه الفلسفة نشوء العالم من الهيولى إلى الصورة ، وإن فضله دروين فى هذا الباب

* * *

وبعد ، فكيف بعد هذا العرض السريع لهذه الناحية من نواحى الفلسفة اليونانية يزعم الأستاذ الرصافى أن وحدة الوجود هى شىء إسلامى بحت لم يعرفه إلا محمد ، ثم فلاسفة المتصوفة المسلمين بعد محمد بقرن أو قرنين من الزمان ؟!

ثم ماذا أصاب الفلاسفة اليونانيين من الهلكة والتخبط ، من لدن طاليس أول فلاسفتهم إلى أرسطو أعظم مفكريهم ، بسبب القول باندماج الله فى العالم أو العالم فى الله ... إلا من هدى الله !

أما الرد على الأراجيف التى تنشأ عن هذا الإفك ، فليس هذا أوانه

دريني خشبة


# القـاهرة

## من المعز إلى الفاروق

# الجيش المصري

## فى عهد محمد على الكبير

مؤلفان للبكباشى

**عبد الرحمن زكى**

مدير المتحف الحربى

يطلب من مكاتب القاهرة وثمن الأول ٣٥ قرشاً والثانى ٢٠ قرشاً عدا البريد

وفى السودان من مكتبة كردفان بالأبيض